المحاضرة رقم: 07

نظرية الانعكاس

في القرن 19 ونتاجا للتقدم العلمي والتكنولوجي والاقتصادي والاجتماعي ظهر أدب جديد اصطلح على تسميته بالأدب الطبيعي الواقعي، وقد ربط هذا الأدب بالحياة والبيئة أو الوسط أو الواقع أو الظروف الاجتماعية.

ولعل أهم منظّر لهذه النظرية هو "هيبوليت تين" في مقدمة كتابه "تاريخ الأدب الإنجليزي" الذي نشر عام 1868 الذي لقي اهتماما كبيرا من قبل النقاد.

يرى "تينّ" أن هناك ثلاثة عوامل تؤثر في الأدب:

1- **الجنس أو العرق أو النوع**: وهي تتمثل في الخصائص القومية، فأدب أمّة ما يختلف عن أدب أمّة أخرى، وهذا يعود إلى اختلاف الخصائص القومية والعناصر الوراثية والنزعات والعلاقات العدائية والملامح الجسدية.

2- **البيئة**: البيئة تتحكم في الحياة العقلية والأدب، فالمناخ في أيّ مكان يؤثر في تشكيل المزاج للفرد، وذلك يؤثر في الأدب.

3- **الزمن**: ويقصد به اللّحظة التاريخية، وهو ما يجعل مفهوم البيئة متحركا ويعني به روح العصر أو مكان العمل الأدبي من تاريخ التراث.

يقر "تين" بأن الفن هو جوهر التاريخ وخلاصته، وهو بالضرورة يعبر عن الخلاصة التاريخية، وقد أنتقد "سانت بوف" ما توصّل إليه "تين" بالّا غم من إعجابه به، إذ يرى أن "تين" لم يتوصّل إلى اكتشاف ما هو جوهري في طبيعة الشّعر وأن الأعمال الأدبية ليست سجلات تاريخية.

وفي أواخر القرن 19، ظهرت محاولة أخرى لتفسير الفن على أسس جديدة، لكنها لم تخرج من إطار الفلسفة المثالية كالّتي استند إليها "تين"، ورائد هذه المحاولة هو أديب روسي مشهور عالميا وهو "ليو تولستوي" الذي وضّح في كتابه "ما الفنّ؟" وآمن بأن العلم والفن

أداتان لتقدّم الإنسانية واللاّشعور الديني هو أساس الفن العظيم دون أن يعني التّعصب الديني، وقد رفض "تولستوي" أعمالا كثيرة في الأدب ومن بينها أعماله نفسه مثل: (الحرب والسلام، أنا كارنينا) بحجة أنه كتب هذه الأعمال في جوّ ارستقراطي فاسد وملوّث.

واهتم "تولستوي" بالعلاقة بين الأدب والقراء ورأى بأن وظيفة الفن هي أن ينقل إحساس الفنّان إلى الملتقى فمهمته توصيلية، وأن لم يستطع الفنّان أن يوصل انفعاله إلى الناس فهو ليس فناناً والهدف هو إسعاد النّاس.

استندت نظرية الانعكاس بخلاف نظرية المحاكاة والتعبير في تفسير الأدب ونشأته وماهيته ووظيفته إلى الفلسفة الواقعية المادية، والتي ترى أن الوجود الاجتماعي أسبق في الظهور من وجود الوعي، بل أن أشكال الوجود الاجتماعي هي التي تحدد أشكال الوعي. وقد استطاعت نظرية الانعكاس أن تقدم مفاهيم جديدة تماما عن نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته، ولعلها أكثر النظريات حيوية وقدرة على الاستمرار بفضل منهجها الذي يتسم بالحركة، إذ يزداد عدد أنصارها الذين يحاولون في كلّ مرّة تطوير بعض قضاياها ومفاهيمها وهذا الذي جعلها متجدّدة وأكثر خصوبة.

فإذا ارتكزت نظرية المحاكاة على المتلقي، واهتمّت نظرية التعبير بالمبدع، ونظرية الخلق التي اهتمت بالنص الأدبي، فأن نظرية الانعكاس اهتمت بكلّ هذه العناصر مجتمعة.

وهذه النظرية لم تعتمد على الوصف والتأمل كمنهج لها، بل اعتمدت على وضع الفرضيات والاستقراء ودراسة تا يخ الفنون العالمية، وحاولت تفسير الظواهر الأدبية باعتبارها جزءا من الظّاهرة الثقافية.

وترى الفلسفة الواقعية المادية أن الواقع المادي، أي علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج (البناء التحتي) تولّد وعيا محدّدا، هذا الوعي يضم الثّقافة والفلسفة والقوانين والدّساتير والفكر والفن (البناء الفوقي).

أ.د سعدية بن ستيتي

وأي تغيّر يحدث في البناء التّحتي يتبعه تغيير في البناء الفوقي. والعلاقة بين البنائين هي علاقة جدلية فالبناء الفوقي يعود فيؤثر في البناء التّحتي من خلال تثبيته أو تحريره أو تعديله أو تغييره.

فكل ما يطرأ على السّاحة الاقتصادية والاجتماعية يتبعه بالضرورة تغييرا في الرؤية لمفهوم المجتمع والإنسان واللغة والأدب والقيم...وهذا يعني أن الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي.

يرى أصحاب نظرية الانعكاس أن الكلاسيكية نتجت عن العصر الإقطاعي، وأن الرومانسية ارتبطت بالثورة البرجوازية، وأن التقدم العلمي والتكنولوجي ولّد المدرسة الطبيعية. وبدخول الطّبقة العاملة على مسرح التاريخ ظهرت الواقعية الاشتراكية، لذلك كله، فالأدب صورة عن الواقع الاجتماعي الذي أنتجه أو أنتج فيه.

إذا كانت نظرية المحاكاة ترى أن الأدب يُطهّر عواطف القارئ، ونظرية التعبير ترى أن مهمة الأدب هي إثارة الانفعالات وعواطف القارئ، ونظرية الخلق ترى أن الأدب يُسلّي، فأن نظرية الانعكاس ترى بأن القارئ يشارك بشكل غير مباشر في عملية الإبداع الأدبي.

ملاحظات عامة على نظرية الانعكاس:

- هذه النظرية تستند إلى الفلسفة الواقعية المادية وهي بذلك تختلف تماما على النظريات الأخرى المستندة إلى الفلسفة المثالية. وقد خاض أعلامها صراعا فكريا وفلسفيا ضدّ أصحاب فكرة الفن الخالص والجمال الخالص ورأوا بأن هؤلاء يحطّون من شأن الأدب.
- كما أنهم **يستخفون** بشأن المبدع الأديب، لأنهم ينظرون إلى عمله على أنه نوع من اللّعب والزّخرفة والتّشكيل الخالي من أيّ مضمون اجتماعي.
- رأت هذه النّظرية أن المعايير النقدية ينبغي أن تشتق واقع المرحلة الاجتماعية والثقافية التي أنتج فيها الأدب وأنه لا شيء مطلق في الحياة فلا معايير نقدية مطلقة.

أ.د سعدية بن ستيتي